النّزعة الإشكاليّة للشّخصية المركزيّة في رواية "موسم الهجْرة إلى الشّمال" للطيب صالح

الدكتور: عبد الرحمان بن يطو

جامعة محمد بوضياف ـ المسيلة ـ الجزائر

تُشكّل شخصية مصطفى سعيد بطل رواية "موسم الهجرة إلى الشّمال" للروائي السوداني الطيب صالح، إشكاليّة نقديّة حقيقيّة في أحداث الرواية، لأنّ بطلها عرف بناء فنيّا نمطيّا ونموا تصاعديّا من خلال تمثّلات المسار الخطيّ لحركة التّرسيمة البيانية للشّخصية في الرواية؛ إذْ انطلقت في أوّل مشوارها من الدرجة الصفر وراحت تتدرّج في سلّم الحياة نحو الأعلى إلى أن وصلت بها سياقات الأحداث الروائية إلى القمّة ثمّ العودة بها مرّة أخرى إلى البدايات الأولى. أي من طالب في المدرسة في إحدى القرى بالسّودان إلى أن صارت تتبوأ منصب أستاذ جامعيّ محترم في بريطانيا. بعد مرورها بالقاهرة ثمّ العودة إلى الوطن ليموت غرقا في نهر النيل في ظروف غامضة، ترسم هذه الإحداثيّة التي تتمحور حولها الرواية سؤالا إشكاليّا له شقان: هل مات مصطفى سعيد عقابا لخروجه عن النّسق الثقافيّ والاجتماعيّ الذي ينتسب إليه؟ أو يُحتمل أنّ الكاتب قتله عمدا لينقذه من جرائره في الحياة؟. مات بطل رواية "موسم الهجرة إلى الشّمال" وهو يحمل سرّه معه رغم ما قيل عن شخصه من مزاعم، فمن خلال هذه الدّراسة نحاول جمع أجزاء الصّورة المُتشظية والمتواريّة بين ثنايا الرواية من أجل إعادة بنائها والتّعرّف على صورة مصطفى سعيد المُثيرة للجدل وعن دوافعه التي أودت به إلى هذه النهاية المشؤومة، التي ابتكرتها مُخيّلة الروائيّ العالميّ الطيب صالح، ومهما تكن المقاربة التي نسعى إليها، فإنّ الرواية في تقديرنا تشكّل لحظة تقاطع حسّاسة بين منظومتيْن ثقافيتين متقاطبتيْن هما: الغرب بعقلانيته الماديّة الشّرسة، والشّرق بروحانيته المسالمة.

الكلمات المفتاحيّة: الشّخصية؛ الإحداثيّة؛ النّسق؛ المُتخيّل؛ المتشظية؛ المُتقاطبة.

The Problematic Tendency of the Central Figure in «The Migration Season to the North» of Tayeb Saleh

Abstract : The character of Mustafa Said, the protagonist of the novel "Migration Season to the North" by the Sudanese novelist Tayeb Saleh, is a real critical issue in the

---

تاريخ تسليم البحث: 05 ماي2017.

تاريخ قبول البحث: 17 نوفمبر2017.

events of the novel, because his protagonist knew a typical artistic construction and grew exponentially through the representations of a linear movement in the novel, from zero and began to rise until it reached the climax of the narration , then returned back to the first beginnings ; from a student at a school of a deprived village in Sudan until he became a respected professor in a great British university after having passed by the Cairo and then returning home to die drowning in the Nile River in mysterious circumstances. This narrative poses two problematic questions: Did Mustafa Said die as a punishment for quitting the cultural and social context to which he belongs or the novelist buried him out of sunlight purposefully to liberate him?. The protagonist of the novel "Migration Season to the North" died with his secret despite the claims of his character. In this study, we try to gather and figure out the fragments of the implicit picture and try to reconsruct the picture of Mustafa Said, get closer to his person to find out the reasons behind such a tragic ending. Whatever the approach we seek, the novel in our estimation is a sensitive moment of intersection between two contradictory cultural systems: the West with its fierce material rationality and the Orient with its peaceful spirituality.

Key words: character, pattern, fragmented, intersecting, layout.

العنوان: إنّ القول الرواية تُقرأ من عنوانها يُراد به العلاقة الاستقطابيّة التي تربط بين المتن وعنوانه، فالعنوان لحظة انجذاب القارئ نحو النّص، وأي فشل قد يعتري الكاتب في صياغة عنوانه هو بالتأكيد فشل في العمل كلّه فكم من نصوص جميلة راحت ضحية عناوينها الفاشلة فالإمعان في ابتكار عناوين ذات نبض شعريّ مَهمَّة يضطلع بها المبدع أولا وأخيرا ويتحمّل عواقبها، وكلّما حمل العنوان كثافة لغويّة وسُمكا دلاليّا زادت مردوديته الشّعريّه، ومن هنا جاء الاهتمام بالعنوان في السياق الشعرية عند الناقد الفرنسي جيرار جينيت؛ إذْ خصّه بفصل كامل في كتابه (عتبات)(1) ودرسه من عدّة جوانب، موقعيّا، وتركيبيا، وجماليّا، وتجاريّا، ودلاليّا(2)

ويتأسّس عنوان رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" على ثنائيّة الغياب والحضور؛ بحيث ذكر الكاتب الاتّجاه نحو الشمال ولكن غيّب الجهة المُقابلة التي انطلق منها وهي (الجنوب)، والجنوب في الجغرافيا السياسيّة من العالم هي الدول التي ترزح تحت وطأة التّخلّف والتّبعيّة والخارجة حديثا من دائرة الاستعمار، بينما الشمال يمثّل التّفوّق والحضارة والتّقدم الصناعي والتّكنولوجيّ، إذن حركة السّهم تتّجه من الجنوب إلى الشمال من منطقة التخلّف إلى منطقة التّقدم والازدهار، من الدّول المستعمَرة إلى الدول المستعمِرة من إفريقيا السوداء إلى أوروبا البيضاء من الانغلاق إلى الانفتاح ومن العدم إلى الوجود، فعنوان الرواية الحقيقي هو "موسم الهجرة (من الجنوب) إلى الشمال"، قد تكون اللغة العربيّة قد أتاحت للكاتب فرصة صياغة العنوان بهذه الطريقة من خلال حذف ما يمكن الاستغناء عنه وعدم الحاجة إليه دون إخلال بالسياق، وهذا متاح عادة في قواعد اللغة العربيّة كقول القائل مثلا: "كلّ عام وأنتم بخير "فالمحذوف هنا في حكم الغيب وهو المقصود به (العام القادم) ما دام الأمر كذلك فيستوجب

حذفه دون إخلال بالمعنى لأنّ الأصل هكذا "كلّ عام (...) وأنتم بخير" أي كلّ عام (يُقدم) ولكن بشرط أن يكون متوافقا مع التّخريج الدّلالي الذي يقتضيه معنى السياق.

يضاف إلى ذلك أنّ الكاتب ذكر حرف الجر (إلى) ومن معانيه نهاية الغاية دون أن يذكر ما يسبقه وهو حرف الجر (من) ومن معانيه بداية الغاية كقولنا: "ذهبت من...إلى.." وهذا ما يوضّحه قوله تعالى في سورة (الإسراء) "سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى"[(3)] أمّا علاقة العنوان بمتنه يمكن أن نتمثّلها من خلال حركة الشّخصية المركزيّة للرواية وهو مصطفى سعيد، التي ابتكر لها الروائي الطيّب صالح نهاية تتوافق ونسق الثقافة العربية الشرقيّة المحافظة؛ هذه الشخصية التي بدت حاضرة بقوّة وانتهت نهاية غامضة، بمعنى آخر اختار لها الكاتب غيابا قسريّا وبحكم أنّ هذه الشخصيّة متّصلة بالجنوب السوداني فشطب لفظ (الجنوب) من العنوان تماما كما شطب أو سحب الشخصية الجنوبيّة المتمثلة في مصطفى سعيد من أحداث الرواية، سواء تعلّق الأمر بدواعيّ أخلاقيّة أو بذريعة فنيّة. وهذا ما أفصح عنه البطل نفسه الذي اختزل الجنوب في شخصه "وأنا جنوب يحنّ إلى الشمال والصّقيع"[(4)].

إذن لو تمعنّا أكثر لاكتشفنا أنّ جوهر عنوان الرواية هو "بداية ونهاية" والواو التي تفصل بين البداية (و) النهاية ليست واو العطف المتعارف عليها، بل هي واو الاهتمام إذْ من غير المنطق أن تُعطف البداية على النهاية والمسافة بينهما شاسعة وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في كذا موقع منها قوله تعالى: "هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكلّ شيء عليم"[(5)]، ولا ندّعي إذا قلنا إنّ ما يُعرف بالبطل في الرواية هو الكاتب نفسه الطيب الصالح لأنّ كلتا الشخصيتين الواقعية والروائيّة من جنوب السودان وأنّ كلا منهما سافر إلى بريطانيا وتعلّم هناك وأنّ كلّ واحد منهما تزوّج من سيّدة بريطانيّة وعاد في الأخير إلى أرض الوطن ليموت مع الفارق في بعض التّفاصيل التي لا تؤثّر في المسار العام للحياة، مع العلم أنّه لا يمكن بأيّ حال أن ننتظر من المبدع أن يقول كلّ شيء عن حياته؛ فهذا مخالف لتقاليد الكتابة الإبداعيّة فالعمل الروائي الحقيقي هو الذي يحوّل ما هو واقعي إلى ما هو تخييليّ وإلاّ صار عملا تسجيليّا لا يرقى إلى مستوى الإبداع.

وظاهرة حضور الكاتب متلبسا بين ثنايا شخصياته الروائية موجودة في كثير من أعمال الروائيين العالميين ومنهم نجيب محفوظ (1911 . 2006)، إذْ يمكن أن نعثر على نتف من سيرته الذاتية من خلال بعض المؤشرات الدالة في (الثلاثية) مثلا، كالمكان التي تجري فيه أحداث الرواية، وهو حي الجمالية التاريخيّ الذي ولد فيه الكاتب وترعرع والأم أمينة زوجة أحمد عبد الجواد، هو نفس الاسم التي تحمله أم الكاتب في الواقع وأعطاها مواصفات الأم

المصرية المثالية في ذلك الوقت، وشخصية كمال أصغر الإخوة وطالب ناجح ورفض التوجه إلى الدراسة في الحقوق واختار بمحض إرادته الفلسفة عن رغبة وهو ما ينطبق تماما على نجيب محفوظ نفسه فهو أصغر إخوته واختار الدراسة الجامعيّة في الفلسفة وليس غريبا أن يكون الاسم الكامل لوالد نجيب محفوظ ينتهي باسم (أحمد) أيْ نجيب محفوظ عبد العزيز إبراهيم أحمد باشا، وهو الاسم الذي تحمله الشخصيّة المركزية في الثلاثية (أحمد عبد الجواد) الذي يمثل والد كمال.

ومن خلال بعض المواصفات التي تطبع شخصية مصطفى سعيد في الرواية يتبيّن لنا بعض التّماثل الأيقوني بين مركّبات شخصيتيْ كلّ من مصطفى سعيد والطيب صالح لدرجة القول أنّ مصطفى سعيد هو الطيب صالح نفسه، هذا الرأي يسانده الناقد المصري رجاء النقاش الذي اعتبر أنّ مصطفى سعيد في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" هو الكاتب نفسه , رغم أنّ هذا الرأي يتعارض مع ما ذهبت إليه الباحثة البريطانية في الأدب الإفريقي جريزلدا الطيب؛ إذْ تقول: "وندعي من طرفنا، أن مصطفى سعيد بطل رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» ليس هو الطيب صالح، ولا يستعير جانباً مهماً من سيرته"[6]، ولا تسلم الشّخصية المركزيّة من سطوة الكاتب الذي يحاول من خلالها أن يمرّر مشروعه الفكريّ والأيديولوجيّ بطريقة ذكيّة مموّهة للقارئ "وتكون الشّخصية المحوريّة أو البطلة عادة، هي الممثل لشخص الكاتب النّفسي والنّاطق بلسانه والمعبّر عن وعيه الاجتماعيّ، حيث تدخل هذه الشخصيّة في نزاع أفعالي وكلامي مع الشخصيات الأخرى لتُعرب عن تأمّلاتها في الإنسان والحياة إضافة إلى دخولها في جدل نفسيّ حادّ تسائل في ذاتها باستمرار رامية إلى نقد آرائها وتصحيح أخطائها وإعادة صياغة خواطرها"[7] وحاول الطيب صالح أن يرفع هذا الحرج عن المتلقي العربي ويدلي بدلوه قائلا: "أنا لا أعتقد بأن مصطفى سعيد هو الشخصية الرئيسية في الرواية، فالمشكلة هي مشكلة الراوي، ومصطفى سعيد جانب من جوانب مشكلة الراوي، ولكن هذه الشخصية استأثرت بالرواية كلّها"[8]

ومهما يكن فإنّ للقراءة النّقديّة فاعليتها وتخريجها الذي يتناسب مع سياق الأحداث، وهنا يحضرني موقف للروائي الفرنسي هنري دو بلزاك (1799 . 1850)؛ حين دخلت عليه زوجتة يوما وهو واضع رأسه على مكتبه يبكي قائلة له: ما يبكيك؟ فأجابها إنّ البطل قد مات ! بمعنى آخر أنّ الروائيّ الحقيقي هو من لا يتحكّم في أقدار شخصياته الروائيّة بل منطق الأحداث وصيرورتها وقانون السببيّة (causalité)، هو من يصنع الحدث بما يتوافق مع المنطق البشريّ، ومنذ البداية علينا أن نصدّق النّص ولا نصدّق النّاص. وهذا من باب البحث عن الشخصية الواقعية في المتخيل السّرديّ. ورغم ذلك نحاول من خلال هذه الورقة البحثيّة أن

نلملم أجزاء الصورة لمعرفة الشّخصية الإشكاليّة المتوارية في النّص والتي يمثلها مصطفى سعيد، بحيث أتقن الكاتب في صنعها نفسيّا واجتماعيّا وأخلاقيّا وفكريّا وحتى مزاجيّا، فهو ولد بعد قرن من حملة نابليون بونابرت على مصر (1798) التي تشكّل السودان عمقها الاستراتيجي وتجمع بين البلدين الثقافة النّوبيّة العريقة التي تمتدّ جذورها في التاريخ وعبر جغرافية نهر النيل، الذي يوحّد المنطقة. وكانت السودان لعهد قريب تابعة سياسيا وعسكريا لمصر أيام حكم عائلة محمد علي باشا. يضاف إلى ذلك أنّ السنة التي ولد فيها مصطفى سعيد كانت حدثا مميزا في تاريخ البلد "مصطفى سعيد من مواليد الخرطوم، 16 أغسطس 1898...الأب متوفى، الأم فاطمة عبد الصادق"[9]، فهذه السنة تصادف أيضا اجتياح القوات البريطانيّة بقيادة كتشنر الأراضي السودانيّة. ومن هنا يأخذ ميلاده منعرجا دلاليا آخر يضاف إلى بناء شخصيته، عرف مصطفى ذلّ اليتم مبكّرا في حياته بفقدان السند المادي المتمثل في الوالد، وبقيت علاقته مع أمّه علاقة وظيفيّة وبيولوجيّة لا أكثر، "كانت كأنها شخص غريب جمعتني به الظروف صدفة في الطريق"[10]، ورغم أنّ الأقدار عوّضته كثيرا ومنحته بعض المهارات والاستعدادات الفطريّة إلاّ أنّه يرى نفسه كشيء خال من أيّ روح تنبض بالقيم الإنسانيّة "مثل شيء مكور من المطاط تلقيه في الماء فلا يبتل، ترميه على الأرض فيقفز"[11]، كان متفوّقا عن أقرانه في الدراسة سريع البداهة والحفظ قد لوحظ عنه ذلك؛ فحين وصل إلى مستوى تعلّم اللغة الإنجليزية أظهر سرعة في تعلّمها وتفوّقا لا نظير له "ألغازا أخرى منها اللغة الإنجليزية"[12]، ولمّا وقع عليه الاختيار ليغادر البلد إلى الدراسة بالقاهرة؛ جاءت لحظة وداع أمّه وكأنها لا حدث؛ تخلو من الروح العاطفيّة التي عادة ما تتّسم بها الأمومة المترعة بالعواطف الفياضة "لا دموع، ولا ضوضاء، مخلوقان سارا شطرا من الطريق معا، ثم سلك كل منهما سبيله"[13]، وفي القاهرة المدينة التي تتّسم بكثير من مظاهر الحداثة الأوروبيّة وجد عائلة روبنسون في انتظاره، وقد عانقته بحرارة مسز روبنسون، قائلة: "لقد كان موزي (= مصطفى سعيد) أعز شخص بالنسبة لي ولزوجي"[14]، إلاّ أنّ النظرة المتخفيّة لهذه الشخصيّة الناشئة تهيمن عليها علامة استفهام كبرى، تمثل المحرّك الذي يحرّك الأحداث الروائية لاحقا، فهو لا يخلو من العقدة الشهريارية التي اشتهرت بها السّرديّة العربيّة قديما، إلاّ أنّ الفارق بينها هو أنّ صورة شهرزاد هذه المرّة هي المرأة ذات الأصول الأوروبيّة الكولونياليّة وهو العربي الإفريقي المسلم الذي يريد أن يفترس الأنوثة البيضاء انتقاما من رجالها الذين جاؤوا يوما غزاة لبلده الآمنة المسالمة.

فكانت نزعته الذّكوريّة هي سلاحه الوحيد الذي يريد أن يشهره في وجه عدوّه بالأمس فـ"كان زير نساءٍ"[15]، إذْ تمكّن أن يجمع بين أكثر من امرأة في آن واحد، الأولى (آن همند) ابنة

ضابط في سلاح المهندسين، أمّها من تنتسب إلى عائلة ثرية من مدينة ليفربول، وعمّتها زوجة لأحد نواب البرلمان، عاشت (آن همند) طفولتها في مدرسة للراهبات، ثم التحقت بجامعة أكسفورد لدراسة اللغات الشرقية، وكانت مترددة بين اعتناق الديانة البوذية أو الإسلام، استغلّ مصطفى سعيد شغفها نحو الشرق من خلال بعض أشعار المجون لأبي نواس، لكنها في نهاية الأمر انتحرت بالغاز تاركة ورقة صغيرة باسم مصطفى سعيد فيها هذه العبارة" مستر سعيد لعنة الله عليك" [16].

و(شيلا غرينود) امرأة "بسيطة حلوة المبسم، حلوة الحديث، أهلها قرويون من ضواحي (هِل)"[17] كانت تعمل خادمة في أحد المطاعم نهارا وتدرس ليلا "كانت ذكية تؤمن بأن المستقبل للطبقة العاملة، وأنه سيجيئ يوم تنعدم فيه الفروق، ويصير الناس كلهم إخوة"[18]، أعطاها الكاتب انطباعا ماركسيّا ورغم ذلك كانت تنحدر من أسرة مشبّعة بالثقافة الأوروبيّة العنصرية؛ إذْ تقول لمصطفى "أمي ستجنّ، وأبي سيقتلني، إذا علما أنني أحبّ رجلا أسود، ولكنني لا أبالي"[19] وقعت في حبّ مصطفى سعيد، رغم موقف أهلها المعارض لهذه العلاقة التي تربطها برجل ذي بشرة سوداء، لكنّ للفتاة انجذاب خاص نحو السواد؛ فهو لون سحر ي وغامض بالنسبة لها ولكن في الأخير آلت الفتاة إلى الانتحار.

و(إيزابيلا سيمور) وهي أم لابنتين وزوجة طبيب جراح ناجح، مواظبة على صلواتها في الكنيسة إذْ "تذهب للكنيسة صباح كل أحد بانتظام، وتساهم في جمعيات البر"[20]، كانت نقطة ضعفها ولعها بالحياة في الأدغال الإفريقية، فتمكّن مصطفى سعيد من الاستيلاء على مشاعرها السّاذجة؛ بحيث صوّر لها بلاده حظيرة كبيرة تعجّ بالحيوانات والوحوش وفي مشهد رومانسيّ قال لها: "أجل، بيتنا على ضفة النيل تماماً، بحيث أني كنت إذا استيقظت على فراشي ليلا، أخرج يدي من النافذة وأداعب ماء النيل حتى يغلبني النوم"[21]، استطاع مصطفى أن يغالطها وتقع في شباكه، وحين أدركت الأمر (إيزابيلا سيمور) اختارت الانتحار وتركت رسالة تبرّر فعلتها قائلة: "إذا كان في السماء إله، فأنا متأكدة أنه سينظر بعين العطف إلى طيش امرأة مسكينة لم تستطع أن تمنع السعادة من دخول قلبها، ولو كان في ذلك إخلال بالعرف وجرح لكبرياء زوجٍ، ليسامحني الله ويمنحك من السعادة مثلما منحتني"[22]

أمّا المرأة التي جعلت حياته جحيما؛ فهي (جين مورس)، هذه المرأة تزوجته تحت تأثير وإغراءات وتنازلات كثيرة قدمها لها مصطفى سعيد، ورغم أنّه تمكّن في الأخير من الزواج بها عن مضض، وغير راضية في قرارة نفسها، إلاّ أنّها بقيت تلاحقه بعبارات تحطّ من جنسه وانتمائه الأفريقي الأسود، ومن خلالها عرف شتى أنواع الإهانات تقول له: "أنت بشع، لم أر في حياتي وجها بشِعاً كوجهك"[23] قدّم لها أثمن الهدايا حتى ترضى لكنه أخفق في استمالتها؛ أهداها

مزهرية ثمينة، ومخطوطا عربيا نادرا، وسجادا فارسيا من حرير أصفهان دون جدوى، فهي كالجواد الجموح بإمكان صاحبه أن يقوده إلى النّهر لكن من المستحيل أن يرغمه على الشّرب. وفي الأخير تقابله بأبشع الكلام: "أنت ثور همجي لا يكلّ من الطراد، إنني تعبت من مطاردتك لي، ومن جريي أمامك، تزوجني"[24]، وتتفاقم مأساته وازدادت الهوّة اتّساعا بينهما، ولم يفلت من لسانها السليط ومن عقدتها الأوروبيّة وبشرتها البيضاء، مقابل انتمائه الإفريقي الأسود، ويتحسر هذه اللحظة قائلا: "فكأننا فلكان في السماء اشتبكا في ساعة نحس"[25]، يبدو أنّ تراكم الإهانات والملفوظات الدونيّة ولّدت غضبا كبيرا في نفس مصطفى سعيد فلم يستطع الرّجل التّحكّم في نفسه فأجهز عليها في لحظة غضب وأرداها قتيلة، انتهت حياة (جين موريس) على يد زوجها المفترض. "فقد أدمنت جسده إدمانا شديدا جعل علاقتها به كالفعل المنعكس الشرطي الذي لا يرتفع إلى الوظائف العليا من الدماغ...ولذلك لم تكن تنسى غريزيا وعلى المستوى البيولوجي أنها أوروبية وهو أسود، وأنها زوجته دون أن يكون هو زوجها، فهي قادرة على الاستغناء عنه في أي وقت، وقادرة على الاحتفاظ به كيفما تشاء. وعلى هذا الأساس حرصت على أن تستثيره وتهينه وتذيقه ألوان العذاب، بقصد تحطيم الإنسان في داخله، وإشعاره دوما بأنه من عنصر أدنى، وأن الشرق شرق والغرب غرب، وليس من اليسير أن يلتقيا"[26] ويستدرج الراوي مصطفى سعيد في حوار له: "أليس صحيحا أنك في الفترة مابين أكتوبر 1922 وفبراير 1923. في هذه الفترة هذه وحدها على سبيل المثال، كنت تعيش مع خمس نساء في آن واحد.

بلى

وإنّك كنت توهم كلا منهن بالزواج؟

بلى

وإنّك انتحلت اسما مختلفا مع كلّ منهن؟

بلى

إنك كنت حسَن، وتشارلز، وأمين، ومصطفى، ورتشارد؟

بلى

ومع ذلك كنت تكتب وتحاضر عن الاقتصاد المبني عن الحبّ لا على الأرقام؟ أليس صحيحا أنّك أقمت شهرتك بدعوتك الإنسانيّة في الاقتصاد.

بلى"[27]، اجتهد الطبيب صالح طوال أحداث الرواية على تأثيث شخصيته وفق رغباته ومزاجه الخاص؛ فهو شخصية عربيّة مسلمة محافظة سودانيّة نوبيّة جنوبيّة شرقيّة إفريقيّة يضاف إلى ذلك مثقّفة ومتفوّقة علميّا، إنّ هذا المجموع من الصفات لا يساوي في حقيقة الأمر رجلا زير نساء أو ماجنا إلاّ في معادلة الكاتب التي رسمها في مُخيلته، إنّ تلك المُعطيات التي

ذكرناها من المفترض أن تساويّ رجلا أنموذجا في الاستقامة والعطاء بغضّ النّظر عن هُويته وانتمائه، فـ" مشكلة البشرة السوداء هي التي تعطي للتجربة الإنسانية عمقا وعنفاً، بل وتمزجها بنوع خاص من المرارة...وعنصر اللون له أهميته الكبرى، فالبشرة السوداء أكثر من غيرها هي التي انصب عليها غضب الغربيين، وحقدهم المرير، وهي التي تفنن الغرب في تجريحها إنسانيا قبل أن يكون هذا التجريح سياسيا أو اقتصاديا أو ثقافيا. إن الإنسان الأسود قد عاش قرونا من التعذيب والإهانة على يد الغرب، وتركت هذه القرون في النفس الإفريقية جروحا لا تندمل بسهولةٍ"[28]

وبدأ الرجل رحلة المتاعب والتّشرّد، بعد أن قضى عقوبة سبع سنوات في السّجن، وفي الأخير عاد إلى الوطن إلى السودان واختار قرية ليس قريته، اشترى أرضا وأقام هناك "اشترى مزرعة وبنى بيتا وتزوج حسنة بنت محمود"[29]، التي أنجبت له ولدان، واستطاع أن يكسب احترام الناس وإعجابهم في وسطه الجديد. وهنا يتولى الراوي زمام الحديث؛ الذي افتكّ صلاحيات واسعة من الكاتب داخل الأحدث الروائيّة، بغد غياب دام سبع سنوات في لندن وتتسارع الأحداث؛ إذْ يتعرّف الراوي، وهو إحدى الشّخصيات الرّوائيّة الفاعلة على شخصية مصطفى سعيد المثيرة للجدل ويحكي له مغامراته مع النساء اللندنيّات، ويتدخل الكاتب هنا ليوجّه الأحداث وِجْهة أخرى ويدفع بالبطل مصطفى سعيد لوضع حدّ لحياته، وذلك حين استدرجه إلى نهر النيل ومات غرقا؟ ! حتى وإن استحدث الطيب صالح مُسوغا فنيا يوهم به القارئ العربي ويتمثّل في الفيضان الموسمي لنهر النيل.

يتقمص الراوي دور مصطفى سعيد؛ ويستأنف مسار حياته "إنني أبتدئ من حيث انتهى مصطفى سعيد"[30] والغريب أنّ زوجته حسنه لا ترضى بغير الراوي زوجا لها رغم كثرة الخطّاب لها فمن خلاله تتجدّد صورة زوجها المتوارية عن الوجود، بل قاومت المرأة الرجل ابن بلدها الذي أرغمها أهلها على الزواج به وهو (ود الريس)، ولم تفلح؛ فقتلته وتخلّصت منه ومن تبعاته الاجتماعيّة والثقافيّة ثم انتحرت!. إذن يغلب البُعد الإشكالي على الشخصية المركزية حتى بعد انسحابها من الحياة "إنّ الشّخصية الروائيّة أيقونة أدبيّة يتوسّل بها الكاتب التّلميح أو التّصريح بحقيقته التي تتوزّع بين الصراع الخارجيّ مع المجتمع والعالم والصراع الدّاخليّ مع مبادئه وإنسانيته"[31]

تعجّ الرواية بأجواء الانتحار، وهذا ما يدفع بفرضية انتحار البطل مصطفى سعيد لكون منْ يخاطر بالذهاب إلى النيل وقت الفيضان ضرب من الانتحار، زد على ذلك دخل يسبح وهو عارٍ كما ولدته أمّه وهذا دليل على أنّ المكان لا يرتاده الناس لخطورة السباحة فيه والأمر الأخر وقت الظلام بحيث لا يمكن أن يشاهده أحد من أهل القرية. ما اعتقده إنّ الرواية تطرح

إشكالية تنبثق من جوهر الثقافة العربيّة المحافظة ذات الأبعاد الشرقية والإفريقية والإسلاميّة، ففي إطار هذه المنظومة الثقافيّة الصارمة تنعدم ثقافة الانتحار وتجرّم مُرتكبها لأنّ هناك وازعا دينيا يردعها، بل ويتوعّد الله صاحبها بالعقاب يوم القيامة، إذن أسلوب الانتحار دخيل على النّسق الثّقافي والأخلاقيّ في المجتمعات العربية التي ترفض مثل هذه التّصرّفات التي تحطّ من قيمة مرتكبها وتنمّ على الهزيمة والخيبة في مواجهة الحياة، يضاف إلى ذلك أنّ الشخصية المركزيّة التي اضطلعت بدور البطولة تمتلك من الثقافة والمستوى العلمي ما يؤهلها للتجنّب مثل هذه السّلوكات المجافية للواقع والتي تضرّ بصاحبها أخلاقيّا واجتماعيّا، كما أنّ هذا الأمر يتعارض مع البناء المورفولوجيّ للشخصيّة التي عُرف عنها منذ نعومة أظافرها الإقبال على الحياة والاجتهاد والشغف في طلب العلم الذي غامر من أجله حتى وصل إلى أعلى مراتب النجاح في أوروبا. وهناك مؤشّر آخر له دلالة استعاريّة يدل على أنّ الغرق في النيل هو غرق بين ضفتي ثقافتين متباينتين لدرجة التّصادم هما، الثقافة الغربية والثقافة الشرقية؛ أي جنوبيّة وشمالية التي تحتكم إلى منطق (فاعل ومفعول) ففي هذا المفترق الحضاري والثقافي غرق مصطفى في النيل كرمزية هُوياتيّة "أنا في منتصف الطريق بين الشمال والجنوب، لن أستطيع المُضي ولن أستطيع العودة"[(32)]

إنّ البُعد الإشكاليّ للشخصية الأساسيّة الذي يطرحه الكاتب ينبثق من منظور الوعي المزيّف المولع بالجسد الأنثوي ذي البشرة البيضاء؛ والذي لا يملك ضوابط أخلاقية تردعه أو سلوك حضارية تهذّبه، وما تلك الصيحة التي أطلقها البطل قائلا: "إنني جئتكم غازيا"[(33)] إلاّ ضرب من النّقص كان من ورائه دوافع سيكولوجيّة مركّبة في مخيال الإنسان الشّرقيّ، الموبوء بالجنسنة الأوروبيّة وما يمكن أن نخلص إليه هو أنّ الروائي السوداني الطيب صالح تعامل مع أحداث الرواية التي تتجسّد في إشكالية شخصية مصطفى سعيد من زاوية فكرية منحازة تقمّص فيها دور الرّجل الأبيض المشبّع بالقيم الأنتروبولوجيّة للاستعمار؛ إذ تعامل مع ابن جلدته السوداء وكأنّه بريطاني أبيض أكثر من البريطانيين أو أنّه أحد حفدة كوتشنر الذي جاء يوما ما غازيا للسودان.

مراجع البحث وإحالاته:

(1) Voir: G. Gennette, Seuils, ed. Seuil ,Paris 1987, P: 7

(2) - (ينظر أيضا: محمد الهادي المطوي، شعرية عنوان كتاب الساق على السياق في ما هو الفارياق، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مج28، ع1، الكويت، يوليو سبتمبر 1999، ص: 457.

(3) - سورة الإسراء، الآية: 1.

(4) الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، دار العودة، ط2، بيروت 1969 ص: 134.

(5) سورة الحديد: الآية 3.

(6) جريزلدا الطيب، من هو مصطفى سعيد بطل «موسم الهجرة إلى الشمال»، جريدة الشرق الأوسط، أبريل 2007، العدد 10361.

(7) سيدي محمد بن مالك، جدل التّخييل والمخيال في الرواية الجزائريّة، دار ميم للنشر، الجزائر 2016، ص:13.

(8) ينظر: مجلة الأقلام العراقية: عدد 12 سنة 1980.

(9) الرواية، م س، ص: 22.

(10) م ن، ص: 23.

(11) م ن، ص: 24.

(12) م ن، ص: 26.

(13) م ن، ص: 27.

(14) م ن، ص: 148، 149.

(15) م ن، ص: 62.

(16) م ن، ص: 72.

(17) م ن، ص: 38

(18) م ن،، ص: 41.

(19) م، ن، ص: 111.

(20) م ن، ص: 141.

(21) م ن، ص: 43.

(22) م ن ص: 141، 142.

(23) م ن، ص: 34.

(24) م ن، ص: 37.

(25) رجاء النقاش، الطيب صالح عبقري الرواية العربية، دار العودة بيروت1984، ص: 85.

(26) إلياس خوري، تجربة البحث عن أفق، مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية، ص: 25.

(27) م ن، ص: 56.

(28) رجاء النقاش، الطيب صالح عبقري الرواية العربية، دار العودة بيروت1984، ص: 81.

(29) رجاء النقاش، م ن، ص: 80.

(30) الرواية، م س، ص: 135.

(31) سيدي محمد بن مالك، م س، ص: 14.

(32) الرواية، م س، ص: 154.

(33) م ن، ص: 63.